

المقطف

الجزء الثاني عشر من السنة السابعة عشرة

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٩٣ الموافق ٢٠ صفر سنة ١٣١١

لغات البهائم

سبق لنا ذكر غارنر الانكليزي الذي انتقل لدرس لغة القرود بمحاكاة اصواتها بالفونوغراف وحفظ تلك الاصوات او الالفاظ ومحاكاة التردد بها للوصول الى فهم معانيها وقد قصد غارنر المذكور حركات افريقية لدرس لغات القرود في اوطانها. ويؤمن كثير من انهم يصود منها يجل سر من الاسرار الطبيعية التي حار فيها المتقدمون والمتأخرون ويزيل الحد الفارق بين الحيوان الاعجم والحيوان الناطق. وقد احيا ذكره ذكر الذين يجثوا في لغات العجاوات اذا صح وصفها بالعجاوات بعد الآن ومن هؤلاء الباحثين كطريد فنزل النمسي . ألف كتاباً في ثينا سنة ١٨٠٨ في ما حلط من لغات البهائم وذهب الى ان البهائم تعبر عن افكارها وعواطفها بالفاظ يفهمها افراد النوع الواحد منها وان فهمها مقدور للانسان ايضاً وأنه يمكن ان تكتب بحروف هجائية مثل الالفاظ البشرية. ووضع قائمة في اصوات ثلثين نوعاً من الطير وذوات الاربع والذئب قاموساً يحتوي أكثر من عشرين صفحة في مفردات لغات البهائم واطاف اليها ترجمات من لغة الكلاب ولغة القطاط وغيرها من السباع الى لغة الانسان وقد توسع في التفسير والتأويل حتى يجادل لمن يقرأ اقواله انه يقرأ حكاية من حكايات لقمان او خرافة من خرافات ايسوب عند الرومان من ذلك ما يحكي عنه وهو انه ذهب يوماً لزيارة صديق له من الصيادين المشهورين فقبل له انه خرج بصطاد فاخذ كتاباً وجلس يقرأ تحت شجرة قريبة من وجر حبس الصيادين بهض الثعالب فما جلس طويلاً حتى سمعها تصوت اصواتاً تدل على الدهشة

والسرور فاصفى الى ما تقول ففهم انها وجدت باباً للفرار من مجنها وانها مسرورة جذلة
 يقرب خلاصها من اسرها . فلما عاد الصياد قال له اني سمعت الثعالب تقول كذا وكذا
 فاحذر لئلا تقلت منك فضحك الصياد منه وقال له دع عنك هذا الغرور ولا تخف على
 الثعالب نرجرها حريز لا منفذ لها منه ثم ذهابا الى البيت وجلسا يتعاطيان المرطبات
 ويتحدثان بامور اخرى وبينما هما كذلك دخل الخادم عليها بغتة واخبرها ان الثعالب قد
 فرّت من وجرها

ويقول فنزل هذا ان لغات البهائم على غاية من الباطة وقلة الالفاظ وان اللفظ
 الواحد يدل على معان متعددة بتفاوت اصواته في الضعف والقوة واقترانه بالحركات
 والاشارات التي تدل على المعنى المقصود فتمنع الالتباس بدلالاتها الطبيعية . وقد افرد
 فصلاً طويلاً للبحث عن دلالة كل عضو من اعضاء الحيوان على المعاني من الاسنان الى
 الاذنان وقال ان الطير تعبر بريثها عن اضطراب عواطفها وتزيد فصاحتها باجتماعها وان
 الكلاب والقطاط كثيرة العواطف قويتها وان كل نوع من انواع الحيوان يتكلم بلغة
 خاصة به مشتقة من لغة فصيلة الاصلية ولذلك كان بعض لغات البهائم متقارباً متشابهاً
 وبعضها لا يظهر فيه تشابه كما هي الحال في لغات البشر فالخمار مثلاً يفهم لغة حمار الوحش
 احسن ما يفهم لغة الفرس لان حمار الوحش اقرب اليونسباً ولو كانت لغات الثلاثة مشتقة
 من لغة الفصيلة التي هي منها . والخنازير الداجنة يفهم بعضها لغات بعض احسن ما تفهم
 لغات الخنازير البرية لان الداجنة اقرب نسبياً ولو كانت كلها من فصيلة واحدة ولغاتها
 متفرعة على اصل واحد هو لغة الفصيلة الاصلية

هذا من قبيل فهم الانسان لكلام البهائم وفهم البهائم كلام بعضها البعض واما فهم
 البهائم كلام الانسان فقد اورد عليه فنزل شواهد عديدة . قال ان قيساً علم كلبه
 "فيدو" ان يأتيه بالكذب من مكتبة ملاصقة لغرفته فكان يقول له اذهب يا فيدو
 الى المكتبة فتجد على الكرسي قرب النافذة ثلثة كتب كتاباً كبيراً وكتاباً متوسطاً
 وكتاباً صغيراً فاتني بالكبير مثلاً فيأتيه فيدو بالكتاب المطلوب ولا يخطئ . وقد علمه
 ذلك بوضع ثلاثة كتب مختلفة القطع على الكرسي وقوله كبير ووسط وصغير فهات الكبير
 وهكذا . وعلمه ايضا ان يأتي باشياء اخرى عديدة يسميها له باسمائها فلا يخطئها الا نادراً
 وعلمه ان يبلغ كلامه الى معارفه فيقول له مثلاً اذهب يا فيدو الى فلان وقل له اني
 ازوره اليوم فيذهب الكلب الى الرجل المعين وينبح امامه ثلاث نجات قصيرات متتارة

عن النباح المعتاد فيهم الرجل المقصود . وكان اذا زار القيس زائرًا وهو غائب ينبح فيدو نيحة واحدة ليقيم الزائر ان صاحبه غائب واذا لم يغب صاحبه بل اراد الانتراد واني مقابلة الزوار قال له اخبر من يأتي لزيارتي اني غائب فينبح الكلب نيحة واحدة ايضًا . ومتى جاء الزوار اسرع نيدو الى الباب يخبثه باخافرو وينبح مرتين فيهم صاحبه ان في الباب زائرًا

ويحكى انه كان عند عائلة في بلاد بشاريا كلب يستكف ان يدخل البيت رجل ورأسه غير مكشوف ولكنه لا ينكر ذلك على المرأة . فسمع رجل اميركي يجبره فجاء البيت يجربه ودخل وجلس ولم يكشف رأسه وذلك دليل قلة الاعبار لاهل البيت عند الانفرنج كما لا يخفى . فلما رأى الكلب قبعته على رأسه وقف امامه وجعل ينبح وعيناه شاخصتان اليها فظل الرجل يتكلم كأنه غير متبهر اليه ولم يكشف رأسه فما كان من الكلب الا انه وثب عليه وعض هذب قبعته بنايه ونزعها عن رأسه ووضعها على الكرسي بجانبه ثم ذهب يلوح بذنبيه ظافرًا مسرورًا

وروى فنزل ايضًا ان رجلاً كان يرسل كلبه الى الجزائر ليأتيه باللحم فيقف الكلب امام اللحم المطلوب من ضأن او عجل او ثور او غير ذلك وينبح مرة او مرتين او أكثر على قدر الارطال المطلوبة فيعطيه اللحم المطلوبة فيرجع الى بيت صاحبه كأنه خادم فيهم ما يعلم . وقد اطال فنزل في ذكر هذه الشواهد وكتب القوم تحوي كثيرًا من نظائرها فلا تزيد من ذكرها

ومنهم رادو الفرنسي ألف كتابًا في الصوت والسميات سنة ١٨٦٩ وذكر فيه لغة البهائم عرضًا وقال ان الانسان يستطيع تعلمها والتكلم بها وخالف مرسن الفرنسي في مذهبه وهو ان الانسان ينطق بارادته واخياره ويعبر عن افكاره بالفاظ لا يقولها الا اذا شاء قولها واما مادونه من الحيوان فيصوت عن اضطرار لا اخيار ويفرد وهرث ويعوي ويصهل مطوعة لعوامل قسرية وقوى طبيعية لا يستطيع مخالفتها فالفرق بينها حرية الارادة وكون الانسان حرًا مختارًا وكون البهيم مضطرًا غير مختار . فانكر رادو هذا الفرق بينها وقال ان الثرثار الذي لا يستطيع ضبط لسانه بل يهذر طول نهاره عبد للعوامل مطواع للقوى الطبيعية مثل سائر البهائم فان كانت هي تصوت عن اضطرار فهو لا يهذر عن اخيار ايضًا

وقد روى في سياق الحديث نادرة عن جول ريشار اثباتًا لرأيه وهي ان جول

ريشار المذكور عاد مريضاً من اصدقائه في مستشفى من المستشفيات سنة ١٨٥٧
 فصرخ هناك برجل من جنوبي فرنسا له كلف بالبهائم ويدعي انه يفهم لغات الكلاب والسانير
 ويكلم القروذ كأنه واحد منها فاصمعه ريشار يقول ذلك افر غير مصدق قول الرجل. فاخذت
 الرجل الالفة وقال له تعال معي غداً الى حديقة الحيوانات فتصدق كلامي. فذهب في
 الغد ولما اتيا قفص القروذ اتكأ الرجل على الدرايزون الخارجى وجعل يصوت اصواتاً
 تسمع ولا تكاد تكتب كقولهِ "كروو. كركيو. كوروكي. كركيو. ويرفع صوته ويخفضه
 سيفه لفظها. فلم يكن الا القليل حتى دنت القروذ كلها منه وجلست الترفساء صفوا امامه
 وهي ثقبة وتجاوبه. فظل يخاطبها فتجاوبه ربع ساعة من الزمان وهي مسرورة بحديثه ثم
 هم بالرجوع فهاجت وهاجت وصعدت الى أعلى الدرايزون وهي تولول وتنوح ولما اوشك
 ان يغيب عن ابصارها وقتت في أعلى قفصها وجلت لتطال وتشرب لروبو. قال
 ريشار ورأيت منها حينئذ اشارات كمن يودع صديقاً ويقول لا تغب طويلاً

وقد استشهد جماعة من العلماء بالبيضاء على فساد مذهب من المذكور وقالوا ان البيضاء
 كالانسان في النطق بالاختيار. روى العلامة هبيل الشهير انه لما بادت قبيلة الاتوربين
 عن نهر اورينوكو في اميركا الجنوبية لم يبق يتكلم بلسانها الا بيضاء طاعنة في السن قضت
 بقية عمرها في الوحدة بعدها فاذا ذكرنا ذلك عجوزاً ماتت منذ اعوام في كورنول بيلاد
 الانكليز فانت لمة كورنول بموتها ولم يبق من يتكلم بها بعدها. ومن الحوادث التاريخية
 انه لما اراد لصوص من الاسبانيين اغتيال اهل قرية يورباكو سنة ١٥٠٩ رأتهم طيور
 البيضاء من اعالي الشجر فصاحت واخبرت اهل القرية بمجيئهم فنجوا من امامهم

وابلغ من ذلك ما يرويه الثقات عن بيضاء رباها قسيس كنيسة منزج وعلمها من
 سنة ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ كل يوم ساعتين ساعة في الصباح وساعة في المساء فانتعت
 قواها العاقلة وارثت مداركها بالتعليم ارتقاء لا يكاد يصدق. ثم توفي صاحبها سنة ١٨٤٠
 فعاشت بعده اربع عشرة سنة وماتت سنة ١٨٥٤ وقد راقبها كثيرون من الخبيرين
 ورووا عنها روايات يركدها المحققون على غرابتها. من ذلك انها رأت رجلاً ذات
 يوم داخلاً الى الفرقة التي هي فيها فصاحت به قائلة من اين انت ثم التفت اليه فوجدته
 من رجال الكهنوت فثقت من فورها معتذرة اليه ارجو من قدسك العفو فاني حسبك طائراً
 غريباً. وكانت كلما سمعت الناس يتحدثون في بيت صاحبها تشاركهم في الحديث كأنها
 واحد منهم وتكثر الكلام احياناً حتى يامرها صاحبه بالسكوت وكثيراً ما كانت تحدث

نفسها بأمور يستغرب تصورها لما فنقول مثلاً "اضربني ، اضربني ايها النذل . اضربني ولا عجب فهذا حال العالم". وكانت تصغر الحاناً وتغني أخرى مما عملها اياهُ صاحبها ويروي الكتاب الفرائب عن بقاء لا تزال عائشة عند المسيو نيكاز من اعضاء الجمعية الاثروبولوجية في باريس يبلغ عمرها نحو خمسين سنة وادراكها عجيب وهي تبعد نداء الباعة والمنادين في شوارع باريس كأنها منهم. فلما حاصر الالمانيون باريس سنة ١٨٧٠ ارسلها صاحبها الى القرى حيث حفظت صوت السهاني واليوم وتنطق النجاجة وصياح الديك واصوات كثير من ذوات الاربع الالاجنة والطيور البرية فكانت تفيدها تسلية للسامعين. واتفق انهم ذبحوا خنزيراً امامها منذ خمس وعشرين سنة فارتسبت صورة ذلك في ذهنها ولا تزال تبعد قباعة وكل صوت صائته من اول ما امسك به الجزار وجرحه الى الجزر حتى ذبحه وشخر شجرة الموت . وهي تبعد ذلك كما حدث تماماً حتى يجيل للسامع انه يرى الخنزير بينيه ويسمعه باذنيه فينج سماعه ويسكت البيضاء اسكاتها حتى لا يتذكر ما لا يروق للعين ولا يخلو للاذن . وعجب من ذلك ان هذه البيضاء تصفي الى حديث الناس وتقيم معانيهم وتلفظ حينئذ بما يوافق المقام من كلام الاعجاب والاستغراب والدهشة وما شاكل كقولها . كذا . عجائب . آه ونحو ذلك من الكلام الذي تقوله في محله . واذا سمعت رجلاً يقص قصة او يقول نكتة مضحكة وراأت الناس يضحكون ضحك معهم . وضحكها هذا مشاكلة لا عن فهم اذ يستبعد ان طائرًا كالبيضاء يدرك ما في النكتة من معنى المزول والمجون . واذا ارادت شيئاً فادت صاحبها بانها "ماري" فان لم تحضر حالاً فادتها مرة ثانية بصوت أعلى كمن فقد صبره فانتهر المنادي . واتفق ذات مرة ان عوداً وقع من النار على ارض القرفة وهو يتقد ويدخن فنادت البيضاء مولاتها يا ماري يا ماري كمن دُعر شديداً . وهي تغني الاغاني التي تعلمها وترتجل اغاني لم تعلمها وتصرفها منيراً فتشبه صوت معزف من ذوات النفخ . وترقع صغيرها توتيعاً يدل على انها تدرك الطنن في الانغام وتطرب لمحاسنه وهي تحفظ جانباً من غذائها لتتشاء في المساء فتهتم بامر نفسها في مستقبلها خلافاً لما زعم شكبير من ان النظر في الماضي والاهتمام بالمستقبل خاص بالانسان

وقد قال الباحثون في طبائع البيضاء انها تدرك سن البلوغ في الثانية من عمرها بخلاف غيرها من الحيوانات الواسعة الادراك فان من الصبوة طويل فيها . وتعمر البيضاء طويلاً والغالب انها تعيش أكثر من جميع افراد العائلة التي تربيتها ولو كان بعضهم قد ولد

بعدها بزمان طويل. وقال المتقدمون في تعريفه الانسان بالحيوان الناطق ان المراد بالناطق القوة الموجودة في جنان الانسان التي ينتش فيها المعاني وهي لا توجد في البيداء لفقده انتقاش المعاني. على انه اذا صح ما يرويه المتأخرون عن طيور البيداء المذكورة آنفاً كان انتقاش المعاني موجوداً فيها غير مفقود بدليل انها تدرك مقام الكلام وتخرج المعاني المطابقة لتتضي الحال. على ان القطع في ذلك يحتاج الى استقراء أكثر وبمقتضى طوبيل هذا طرف ما اثبتة الباحثون في لغات البهائم الا انهم لم يبتدوا الى طريقة دقيقة مثل طريقة غارنر ولذلك بقيت اجناسهم ونتائجهم في معرض الريب. اما الآن وقد اصبح الاعتماد على الفونوغراف في حفظ اصوات البهائم وتكريرها فقد انتفع لهذا البحث باب واسع لا يعلم ما وراءه الا الله

ذوات الاذئاب وتدقيق الفلكيين

العالمي الذي يعني ثمرات العلم ويتمتع بتقونها الدانيات لا يدري مقدار التعب والنصب اللذين يعانينهما العلماء لبلوغ تلك الثمرات والاشقة على ذلك كثيرة لا تحصى وليس على الطالب الا ان يدخل داراً من دور المباحث العلمية فيرى باستور او غيره من العلماء مشغولاً عن طعامه يبحث علمي لا يمكنه مفارقتها. ولعل الفلكيين اكثر الناس اشتغالاً واشدهم تدقيقاً ولو لم يظهر لشظهم فوائد عظيمة حتى الآن مثل الفوائد التي نتجت من اشتغال انكباوبين والفسولوجيين ومن اشقة ذلك يبحثون عن ذوات الاذئاب وتتبع خطاهما في دورانها حول الشمس كما ترى في النبذة التالية

في الرابعة عشرة من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٧٧٠ رأى الفلكي مسيه الفرنسي العظيم نجماً صغيراً من ذوات الاذئاب وكان كقطعة صغيرة من الضباب في السماء ثم زاد جرماً وإشراقاً رويداً رويداً الى الثانية من شهر يوليو وحينئذ اقترب من الارض ولم ير الفلكيون نجماً آخر اقترب منها مثله لا قبله ولا بعده وكان إشراقه حينئذ كإشراق نجم القطب وقطره مضاعف قطر البدر ومن ثم أخذ إشراقه يقل رويداً رويداً ونظر آخر مرة في الثانية من شهر اكتوبر ولم ير بعدها

وقد اشتهر هذا النجم كثيراً لا لانه من ذوات الاذئاب الكبيرة التي تمتد اذناها في عرض السماء فتدخس ابصار العامة والعلماء بل لما اعترض سيره من العوارض ولما